محمد محمد خليفة

كعب بن مالك

شاعر السيف والقلم

المحرر الأدبي

اســم الكتــاب: كعب بن مالك شاعر السيف والقلم

اسـم المـؤلــف: محمد محمد خليفة

الترقيم الــدولي:978-977-6666-61-0

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشــر والتوزيع « محفوظة لدار المحرر الأدبي للنشـــر والتوزيع المشـــهرة برقم 24821 بتــاريخ 2015/10/1. ومقرها جمهورية مصر العربية / محافظة الجيزة.

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشــر أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون موافقة قانونية مكتوبة من الناشــر يعرض صــاحبه للمســاءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

مقدمة

كلمة بين ضـــجيج معاركنا الضـــارية مع الصـــهيونية، وفي غمرة الكفاح الرهيب لاسـترداد المقدسـات، وإعلاء كلمة الله، واسـترجاع ما اغتصـــب من الأرض، ومع خفقات الألوية التي جمعتها كلمة التوحيد والتقت تحتها أصـداء أصـوات المجاهدين: الله أكبر الله أكبر، بين ذلك ومع هذا نقدم شاعرنا الذي جمع بين السيف والكلمة المثيرة المصورة في جهاده تحت راية رسـول الله – صـلى الله عليه وسـلم – وأبلى بلاءه مع الغازين في فتوحات الإسلام لتكون كلمة الله هي العليا.

حياته

نســـبه: هو كعب بن مالك بن أبي كعب، واســـم ابن أبي كعب عمرو بن القين بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة ويكنى: أبا عبد الله وأبا عبد الرحمن، وأمه ليلى بنت زيد بن ثعلبة من بني ســـلمة، وينتهي نسبه إلى الخزرج، والخزرج والأوس الذين سكنوا المدينة ينتهي نسبهم إلى ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عاص بن ماء الســـماء. وفي عامر بن ماء السماء يلتقي نسبهم مع قبيلة خزاعة التي سكنت مكة، ومع الغساسنة الذين ملكوا الشـــام، ومع المناذرة الذين ملكوا الحيرة. وكل أولئك نزحوا من اليمن واســـتوطنوا بعض جزيرة العرب. وهم من أصـــل قحطاني. فشاعرنا هذا من أصل يمني قحطاني.

ولد كعب بن مالك في المدينة قبل هجرة الإســـلام إليها، وكان مولده في فترة اشـتعلت فيها الحروب بين الأوس والخزرج، فتفتحت عين الوليد أول ما تفتحت على غبار المعارك يملأ دروب المدينة وتغص به بطاحها، وعلى منظر الدم تسـفكه الأحقاد، وتشـتفي به الأنانية، وسمع أول ما سمع صـــليل الســـيوف وصـــهيل الخيول وصـــيحات الإهابة والتحريض والإثارة وأناشـــيد الفخر ومقطوعات المراثي وأنات الثكالى وبكاء اليتامى.

واشتد عوده بين الملاحم التي شهدها أو سمع أقاصيصها من أيام الأوس والخزرج وما أكثرها ومن بينها يوم بعاث، ويوم سميحة، ويوم الدرك، ويوم الربيع، ويوم البقيع.

وكم سمع من أبيه مالك بن أبي كعب الشاعر صورا لتلك الأيام وما قيل فيها، وكم سمع من عمه قيس بن أبي كعب ما جادت به عبقريته الشاعرة في تلك المعارك.

فلم يكن بدعا وقد نشأ في بيت الشعر والفروسية وبين تلك الملاحم أن يكون أحد أرباب السيف والقلم من شعراء العروبة.

ولم يكن بدعا وهذا بيته أن نرى ابنه عبد الرحمن شاعرا وأن نرى ابن ابنه بشير بن عبد الرحمن شاعرا كذلك فهو واسطة العقد في بيت الشعر.

ولم يكن بيت كعب وحده في المدينة هو الذي اختص بين بيوتها بقول الشعر، بل كل البيوت تفيض بالمشاعر والأحاسيس، وتتدفق بالقوافي، وذلك ما يرويه أنس بن مالك خادم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيقول: قدم علينا الرسول عليه الصلاة والسلام وما في الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر، فقيل له: وأنت أبا حمزة؟ قال: وأنا.

فكعب وهو ينشأ ويعيش في المدينة في وسط هذا المجتمع الشاعر وبين الملاحم المثيرة خليق به أن يكون شاعرا بل أن يكون مجيدا لأن للبيئة والوراثة أثرهما.

دين المجتمع المدني:

تقاسمت ذلك المجتمع الوثنية واليهودية فالوثنية يدين بها العرب من الأوس والخزرج وغيرهما ممن يعيشـــون في يثرب من القبـائـل العربيـة، واليهودية يدين بها بنو النضـــير وبنو قريظة، وبنو المصـــطلق وغيرهم من اليهود الذين يعيشون في المدينة وحولها.

ودان كعب كقومه بالوثنية.

ظهور الإسلام وانتشاره في المدينة

ظهر الإسلام أول ما ظهر في مكة ودعا محمد – صلى الله عليه وسلم – قومه فآمن بدعوته من شرح الله صدره للإسلام ثم راح يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج (وكان العرب يقدمون الكعبة ويحجون إليها في كل عام بعد مواسم الأسواق التي كانوا يشهدونها)، وشاء الله أن يلتقي الرسول – صلى الله عليه وسلم – في مكة بستة من الخزرج عند العقبة فعرض عليهم دعوة الإســـلام فقبلوها، ولما قدموا المدينة عرضوها على أقوام ففشت بينهم حتى كانت أحاديث بيوت المدنيين.

وفي العام الذي يليه التقى في الموســـم في مكة (عند العقبة) اثنا عشر رجلا من الأوس والخزرج برسول الله – صلى الله عليه وسلم – فبايعوه وكانت هذه بيعة العقبة الأولى، وأرسل معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ليقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، ويصلي بهم.

وأمن بالإســـلام في هذه الســـنة الكثير من الأوس والخزرج ومن بينهم شاعرنا (كعب بن مالك).

أول لقاء الشاعر برسول اللّه

ولما كان العام التالي خرج اليثربيون إلى الحج وبينهم كثرة من المسلمين فلما استقر بهم المقام خرج كعب بن مالك في صحبة البراء بن معرور يسألان عن (محمد) وما كانا يعرفانه فلقيهما رجل من أهل مكة فسألاه عنه فقال لهما: هل تعرفان العباس بن عبد المطلب؟ قالا: نعم، حيث كان يقدم على المدينة تاجرا، قال المكي: إذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس، قال كعب: فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – جالس معه، فسلمنا، ثم جلسنا إليه.

فقال رسول الله للعباس: هل تعرف الرجلين يا أبا الفضل؟.

قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك.

قال: رسول الله – صلى الله عليه وسلم: الشاعر؟

قال: نعم (وهذه شهادة لشاعرية كعب يشهد له بها من أوتي جوامع الكلم).

ثم واعد المسلمون من الأوس والخزرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على اللقاء عند العقبة ليلا في أواسط أيام التشريق فلما كانت الليلة الموعودة خرجوا يتسللون إلى العقبة وعددهم ثلاثة وسبعون رجلا ومعهم امرأتان هما: نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو، ووافاهم الرسول مع عمه العباس (وكان على دين قومه).

وتكلم العباس فقال: إن محمدا منا في عز من قومه ومنعه في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه.

فقالوا له: سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله.

فتكلم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

فأخذ البراء بن معرور يده، ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما تمنع منه أزرنا (كناية عن النساء) فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (السلاح) ورثناها كابرا عن كابر.

فقال أبو الهيثم بن التيهان: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها (يعني اليهود) فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا، فتبسم الرسول وقال: بل الدم الدم والهدم الهدم (أي ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم) أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم.

ثم هاجر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولم يكد يقر قراره في المدينة حتى آخى بين المهاجرين والأنصار وكان نصيب كعب بن مالك (شاعرنا) من تلك المؤاخاة أخوته لطلحة بن عبيد الله.

الغزوات التي شهدها كعب

وحينما بدأ الرسول صلوات الله وسلامه عليه غزواته ليحق الحق ويبطل الباطل، كان كعب بن مالك واحدا من أولئك البواسل الذين خاضوا مع الرسول غزواته في سبيل الله إلا غزوة بدر وتبوك، وذلك ما يحدث به كعب نفسه فيقول: ما تخلفت عن غزوة غزاها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قط غير أني كنت قد تخلفت في غزوة بدر، وكانت غزوة لم يعاقب رسول الله أحدا تخلف عنها، وتخلفت في تبوك وكنت قويا ميسورا. .!

وشهد كعب بن مالك غزوة أحد وأبلى فيها أحسن البلاء، وكان قد لبس لأمة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولبس الرسول لأمته، وقد جرح كعب في أحد أحد عشر جرحا وثبت على الرغم من جراحه وحينما صاح الكفار: قتل محمد، ودقت الصيحات أسماع كعب راح يفتقد القتلى والجرحى فعرف النبي – صلى الله عليه وسلم – ورأى عينيه تزهران (تضيئان) من تحت المغفر، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله، فأشار إليه الرسول: أن أنصت، فلما عرف المسلمون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نهضوا به.

ما نزل فيه من القرآن

لقد أنزل الله في شـــأن كعب بن مالك قرآنا بعد تخلفه عن غزوة تبوك التي كانت بين المســلمين والروم، وكانت في الصــيف حيث الحر والجدب، وحيث يهيم الناس بالأفياء ويهرعون إلى الظلال.

وقد روى ابن إسحاق عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، وكان يقود أباه حين أصــيب بصــره فحدثه حديث تخلفه عن تبوك قال:

كان من خبري حين تخلفت عن رســول الله – صــلى الله عليه وسلم – في غزوة تبوك: أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، وتجهز رســول الله وتجهز المســلمون معه، وجعلت أغـدو لأتجهز معهم فـأرجع ولم أقض حـاجـة، ثم يقول: وجعلـت إذا خرجت في الناس بعد خروج رســول الله – صــلى الله عليه وســلم – وطفت فيهم يحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصــا (مطعونا عليه) في النفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضــعفاء، ولم يذكرني رســول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى بلغ تبوك.

فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟

فقال رجل من بني ســلمة: يا رســول الله حبســه برداه والنظر في عطفيه.

فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيرا.

فسكت رسول الله فلما قفل الرسول من تبوك دخل المسجد وصلى ركعتين، ثم جاءه المخلفون، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون فيقبل منهم، حتى جلس كعب بين يديه.

فقال له الرسول: ما خلفك؟ ألم تكن ابتعت ظهرك؟

قال كعب: قلت: يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم كذبا لترضين عني، وليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديثا صدقا تجد علي فيه، إني لأرجو عقباي من الله.

فقال الرسول: قم حتى يقضي الله فيك، وكان معه في مثل موقفه: مرارة بن الربيع، وهلال بن أبي أمية.

وكان كعب بن مالك بعد ذلك يخرج إلى الصلوات، ويطوف بالأسواق، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد نهى المسلمين عن كلام هؤلاء الثلاثة، ولكن كعب بن مالك كان يصلي في المسجد مع الرسول، ويسارقه النظر والرسول يعرض عنه، وطالت مقاطعة المسلمين لهم.

ولما علم ملك غسان بذلك أرسل إلى كعب يطلب منه النزوح إلى الشام ليعيش في كنفه حيث يلتقي بملك غسان نسبا في عامر بن ماء السماء، ولكن كعبا أحرق الرسالة.

وبعد انقضاء أربعين يوما على تلك المقاطعة جاءه رسول رسول الله يبلغه أن الرسول يأمره باعتزال زوجته، فاعتزلها، وبعد انقضاء خمسين يوما من بدء المقاطعة ضاقت فيها نفسه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وكان قد ابتنى خيمة له في ظهر سلع.

سمع صوتا يناديه: يا كعب بن مالك أبشر، فخر ساجدا لله، ثم نزل إلى المسجد فتلقاه الناس في طريقه بالفرح والتهنئة حتى سلم على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

فقال له الرسول: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك.

قال كعب: قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟

قال الرسول: بل من عند الله.

قال كعب: يا رسول الله إن توبتي إلى الله أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله.

قال الرسول: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك، ثم تلا الرسول:

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١) ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ

لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ [سورة التوبة:118]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ [سورة التوبة:119]

وبهذا تاب الله على كعب بن مالك وصاحبيه بعد عذاب نفسي قضوا فيه خمسين يوما بل عانوا منه منذ خروج الرسول إلى تبوك وتخلفهم عنه حتى ضاقت عليهم الأرض وضاقت عليهم أنفسهم، وكانت توبة الله عليهم فأخرجتهم من الضيق إلى فرج الحياة يعيشون فيه مع الصادقين المتقين.

روايته الحديث

روى كعب بن مالك عن النبي – صــلى الله عليه وســلم – كثيرا من الأحاديث، وكل بني كعب قد روى عنه ما سمعه وما رآه من أفعال الرسول.

ومما رواه حفيده عن أبيه أن كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال.

«والذي نفســي بيده لكأنما تنضــحونهم بالنبل بما تقولون لهم من الشعر[1]».

(وكأنما يرى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن هجاء كعب وحسان وابن رواحة لقريش – حين عبأت شعراءها لهجائه فعبأ الرسول لهم هؤلاء – كأنما يرى في هجائهم لقريش قوة فتك النبال في النيل من النفوس).

وربما كان طعن النفس أشد أثرا من طعن الجسد.

---

1 مسند أحمد بن حنبل (٣/ ٤٥٦).

مواقفه من الفتنة الكبرى

كانت الفتنة التي مني بها المسلمون في عهد عثمان أخطر فتنة مزقت وحدة المسلمين في بدء قيام أمتهم الكبيرة.

وكان بين كعب وعلي حوار في أمر عثمان وقتله، ولم يقتنع برأي علي فاعتزله:

وله شعر يحرض فيه الأنصار على نصرة عثمان ويؤنبهم على خذلانهم له ومنه قوله:

فلو حلتم من دونه لم يزل لكم ** مدى الدهر عز لا يبوح ولا

ولم تقعدوا والدار كاب دخانها = يحرق فيها بالسعير وبالجمر

وكان كعب أحد من عاون عثمان على المصريين وشهر سلاحه، فلما ناشد عثمان الناس أن يغمدوا سيوفهم انصرف كعب، ولم ير أن الأمر يخلص إليه، ولا يجترئ القوم على قتله، فلما قتل وقف كعب على مجلس الأنصار في مسجد الرسول فأنشد:

من مبلغ الأنصار عني آية ** رسلا تقص عليهم التبيانا

حتى يقول:

حتى إذا خلصـــوا إلى أبوابـه ** دخلوا عليه صـائما عطشـانا

الله يـعـلـم أنـني لم أرضـــه ** لكم صـــنيعا يوم ذاك وشـــانا

والله لو شـــهد ابن قيس ثابت ** ومعـاشـــر كـانوا لـه إخوانا

وأبو دجـانـة وابن أقرم ثابـت ** وأخو المشاهد من بني عجلانا

قوم يرون الحق نصـــر أميرهم ** ويـرون طـاعـة أمـره إيمـانا

وقد عمّر كعب حتى مات في خلافة معاوية.

كعب بن مالك أحد شعراء الرسول

كان كعب بن مالك أحد الشعراء المخضرمين وهو من شعراء المدر الذين عاشوا في المدينة فتأثروا، بأجوائها وطبيعتها وما في مجتمعاتها، وما اكتسبته من وقوعها في طريق تجارة الجزيرة العربية والشام وكان واحدا ممن شدوا بالشعر من أهل المدينة، فلما أسلم كان أحد شعراء الرسول الذين نافحوا ووهبوا ألسنتهم للذود عنه وهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وتولى ابن رواحة تعيير قريش بالكفر وعبادة ما لا يضر ولا ينفع، أما حسان وكعب فقد أخذا يعارضان شعراء قريش، ويردان على ما يقولون في المعارك والأيام، ويذكران مثالب قريش، وكانت قريش قد عبأت لهجاء الرسول: عبد الله بن الزبعرى، وأبا سفيان بن الحارث وضرار بن الخطاب، وعمرو بن العاص.

ولم تنم شاعرية كعب عن هجاء قريش قبل إسلامها، كما لم تهدأ عن هجاء يهود المدينة بعد أن نقضوا عهودهم وغدروا وخانوا، كما كان لشاعرية كعب أثرها في إرهاب قبائل العرب التي لم تسلم.

ومن شر ما قيل في قريش قول كعب:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها ** فليغلبن مغالب الغلاب

(والسخينة طعام من اللبن أغلظ من الحساء) وقد عيرت به قريش حتى سموا سخينة، ولما سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – البيت قال: لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا.

وقد حدثوا أن قبيلة دوس أسلمت خوفا من المسلمين حينما بلغها قول كعب:

قضينا من تهامة كل وتر ** وخيبر ثم أغمدنا السيوفا

نخيرها ولو نطقت فقالت ** قواطعهن: دوسا أو ثقيفا

موضوعات شعره في الإسلام

كان أهم ما خاضت فيه شاعرية كعب من موضوعات شعره في الإسلام هو الغزوات والمراثي، وخلال هذين الغرضين ساق الفخر والرد على المعارضين من شعراء قريش وتناول الهجاء وإن كان لم يصل فيه إلى الأعماق كما وصل حسان، كما توعد وهدد الشانئين، وحينا نراه في بعض أبياته مؤرخا، وحقائق التاريخ لا تجتمع مع الجمال الفني الذي يتطلبه الشعر، وكثيرا ما حرض، وأثار النفوس إلى البذل وذلك في تصويره للغزوات، وقدم في مراثيه مشاعر النفس الحزينة الجريحة حين يبكي أخا مسلما وأروع ما قدم في ذلك السبيل مراثيه في حمزة وقتلى مؤتة.

وإليكم بعض النماذج لما قدمته شاعرية كعب بن مالك في الموضوعات المختلفة وعقب كل قطعة شرح بعض المفردات اللغوية التي قد لا تدرك مع تعليق موجز يوضح بعض ما تناولته الأبيات، وذلك إذا كان فيها شيء من الغرابة على أجيالنا، وقد يضطرنا الموقف إلى ذكر بعض أبيات لشاعر قرشي يستدعيها رد شاعرنا عليه.

الفخر والرد

لقد آوى الأنصـار رسـول الله – صـلى الله عليه وسـلم – وآزروه ونصـروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ومن ثم نرى كعب بن مالك يفخر كثيرا بقومه الأوس والخزرج وبمواقفهم حول رسـول الله – صـلى الله عليه وسـلم – وأنهم كانوا معقلا له يحميه من كل عدوان، وكثيرا ما تصـدى للرد على شـعراء قريش فيما يقولون، فحين يدعي ضـرار بن الخطاب شـاعر قريش أن نصـر المسـلمين في بدر كان مرجعه إلى القرشـيين المهاجرين وعلى رأسـهم محمد ليطعن بذلك المنزلة الحربية التي كانت للأنصار فيقول:

فإن تظفروا في يوم بدر فإنما ** بأحمد أمسـى جدكم وهو

وبالنفر الأخيـار هم أوليـاؤه ** يحـامون في اللأواء والموت

بعـد أبو بكر وحمزة فيهم ** ويدعى علي وسـط من أنت

ويـدعى أبو حفص وعثمـان ** وسـعد إذا ما كان في الحرب

أولئك لا من نتجت في ديارها ** بنو الأوس والنجـار حين

ولكن أبوهم من لؤي وغـالب ** إذا عدت الأنسـاب كعب

اللأواء: الشدة.

فيجيبه كعب بن مالك من قصيدة طويلة:

قضي يوم بدر أن نلاقي معشرا ** بغوا وسبيل البغي بالناس جائر

وقد حشـــدوا واســـتنفروا من ** من الناس حتى جمعهم متكاثر

وســـارت إلينا لا تحاول غيرنا ** بأجمعها كعب جميعا وعامر

وفينا رســـول الله والأوس حوله ** له معقل منهم عزيز وناصـــر

وجمع بني النجـار تحـت لوائـه ** يمشـــون في الماذي والنقع ثائر

الماذي: بتشديد الياء: الدرع، النقع: الغبار.

بهذه الأبيات يبين كعب بغي قريش، وأنها حشـــدت واســـتنفرت وســـارت بكل من تناســـل من كعب وعامر تريد بذلك القضـــاء على الأوس والخزرج، وقد كانت الأوس المعقل الذي احتمى به رسـول الله – صـلى الله عليه وسـلم – فهم الذين آزروه ونصـروه، وقد استظلت جموع بني النجار (وهم من الخزرج) بلوائه ومشـــوا في دروعهم وســـط الغبار المتكاثف يصـــدون الجموع الكثيفة التي ألقت بها إليهم لؤي: من كعب وعامر.

وسكت كعب عن ذكر الأبطال القرشيين المسلمين الذين ذكرهم ضـــرار فلم يتناول مواقفهم وبطولاتهم بل لم يذكر للمهاجرين موقفا في قصـيدته هذه، ولم يكن كعب يقصـد بهذا السـكوت الغض من شـأن المهاجرين أو الإنقاص من مواقفهم في بدر ولكن الرد على ضـــرار هو الذي فرض على كعب هذا الموقف.

وفي أبيات أخرى يفخر بالقوة الضـاربة للمسـلمين تلك القوة التي ضـــربت عظماء لؤي وحلفاءهم فهووا لمناخرهم حيث يكر المســـلمون، وداس المسلمون بالصوارم أبناء لؤي وحلفاءهم فقال:

ضـــربناهم حتى هوى في مكرنا ** لمنخر ســـوء من لؤي عظيمها

فولوا ودســـناهم ببيض صـــوارم ** سـواء علينا حلفها وصـميمها

الحلف: الحليف، والصميم: من يرجع إلى لؤي أصلا.

ويســـترســـل كعب في مفاخره فيفخر بالفضـــائل التي عرف بها الأنصـار: فهم لا يرون القتل عارا على من يحمي حماه، وهم صـبر على الحوادث لا يبكون على هـالـك يموت في المعارك، وهم أبنـاء الحرب لا يجزعون مما تجره من ويلات.

ولا يفحشون إن ظفروا ولا يتوجعون إن مسهم قرح فيقول:

ونحن أناس لا نرى القتل ســبة ** على كـل من يحمي الـذمـار

جلاد على ريـب الحوادث لا ** على هـالـك عينـا لنـا الـدهر

بنو الحرب لا نعيا بشـيء تقوله ** ولا نحن مما جرت الحرب نجزع

بنو الحرب إن نظفر فلســـنـا ** ولا نحن من أظفـارهـا نتوجع

وكم من صــورة أزجتها شــاعرية كعب تتدفق بمفاخر الأنصــار، وتحمل ما تحمل من تهديد للمشـركين بالضـربات السـريعة التي يلاقونها من أولئك المحيطين برسـول الله ممن أعدوا للحروب سـرابيل تقيهم وهم من أصـل الغسـاسـنة (وكثيرا ما افتخر كعب بهذا النسـب) وقد طالت حمائل سيوفهم، وهم ليسوا بالجبناء، ولا ممن فقدوا التروس والرماح وإنهم ليمشــون في ظلمات غبار المعارك كما تمشــي فحول الإبل البيض التي يمشــي بعضــها إثر بعض، أو كما تمشــي أســود الطل وقد بللها الرذاذ الذي أثارته ريح الشــمال، وهم في دروع ســابغة محكمة تلمع كالغدير والقائم بها كالنهر الأبيض، تلك هي الصــور التي يقدمها فيفخر بها ويهدد ويرهب، ويثير الرعب في قلوب المناوئين فيقول:

ولو هبطتم ببطن الســيـل ** ضرب بشاكلة البطحاء ترعيل

تلقاكم عصــب حول النبي لهم ** مما يعدون للهيجا ســرابيل

من جذم غســـان مســـترخ ** لا جبنـاء ولا ميـل معـازيـل

يمشـــون تحت عمايات القتال ** تمشي المصاعبة الأدم المراسيل

أو مثل مشي أسود الطل ألثقها ** يوم رذاذ من الجوزاء مشـــمول

في كل ســـابغة كالنهي محكمة ** قيامها فلج كالســـيف بهلول

الشـــاكلة: الطرف، الترعيل: الضـــرب الســـريع، الهيجاء: الحرب وقصـر للضـرورة الشـعرية، السـرابيل: جمع سـربال: القميص أو الدرع أو كل ما يلبس، الجذم بكسـر الجيم: الأصـل، الحمائل: علائق السـيوف، الميل بكسـر الميم جمع أميل: وهو من لا ترس له، والمعازيل: من لا رماح معهم، العمايات: الظلمات، المصاعبة: فحول الإبل، الأدم بضم الهمزة: الإبل البيض، المراســـيل: التي يمشـــي بعضـــها إثر بعض، الطل: المطر الخفيف، ألثقها: بللها، الرذاذ: المطر الضعيف، الجوزاء: نجم، المشـمول: الذي هبت فيه ريح الشـــمال، الســـابغة: الدرع، النهي: بكســـر النون المشـددة: النهر، قيامها: القائم بها، الفلج: النهر، البهلول: بضـم الباء: الأبيض.

وما أكثر ما تغنى الشاعر ببسالة قومه في الغزوات حتى وهو في موطن الرثاء ففي إحدى مرثياته لحمزة شهيد أحد يقول:

غداة أجابت بأسيافها ** جميعا بنو الأوس والخزرج

فما برحوا يضربون الكماة ** ويمضون في القسطل المرهج

القسطل: الغبار، المرهج: الذي علا في الجو.

ولم يقصر كعب فخره بقومه على مواقفهم في الحروب بل افتخر بهم في السلم حين تجدب الأرض ويجف الزرع والضرع فتراهم الكرماء وذلك في قوله:

فإن تسألي ثم لا تكذبي ** يخبرك من قد سألت اليقينا

بأنا ليالي ذات العظام ** كنا ثمالا لمن يعترينا

تلوذ البجود بأذرائنا ** من الضر في أزمات السنينا

الليالي ذات العظام: ليالي الجوع التي تجمع فيها العظام وتطبخ لاستخراج ودكها فيؤتدم به، الشمال: الغياث، يعترينا: يزورنا، تلوذ: تلجأ، البجود: جماعات الناس، الأذراء: الأكناف، الأزمات: الشدائد.

وهكذا يخاطب من يخاطب محبوبة أو غير محبوبة أنها إذا سألت عن قومه هنالك لا تكذب بل تخبر باليقين الذي تعرفه عن قومه، فهم الغوث لكل من يزورهم في تلك الليالي القاسية التي يجمع فيها الناس العظام ليطبخوها حيث فقدوا اللحم، وما أشد هذه الأيام التي تلجأ

فيها جموع الناس إلى أكناف بيوتهم خوفا من الضـــر الذي يحيق بهم في السنين الشديدة التي لا تحتمل مجاعاتها.

حسبنا ما قدمنا من نماذج فخر كعب بقومه.

شعر الوعيد والتهديد

كان لانتصار المسلمين في أول غزوة التقوا فيها بالمشركين أثره في رفع معنوية المسلمين، فانطلق شعراؤهم على أثرها يهددون ويتوعدون أعداء الله.

وكم جاش هذا اللون خلال القصائد التي سيقت في مختلف الأغراض، وهذا نموذج من الوعيد يسوقه كعب فيهدد قريشا بجيوش المسلمين التي ستغزوهم في عقر دورهم وتطلع عليهم من (كداء) وهو موضع بمكة وبين الجيوش جبريل وميكال وأشراف القوم وكأنه بهذا يخيف قريشا ويبين لها أنها لا تحارب المهاجرين والأنصار وحدهم بل معهم ملائكة السماء. وأنى لقريش أن تتصدى لمعارك فيها ملائكة الله، وهو بهذا يشير إلى ما جاء في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [سورة آل عمران:123] ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [سورة آل عمران:124] ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [سورة آل عمران:125] فيقول كعب:

فلا تعجل أبا ســـفيان وارقب ** جيـاد الخيـل تطلع من كـداء

بنصـــر الله روح القـدس فيهـا ** وميكـــال فيـــا طيـــب الملاء

الملاء: الملأ وهم أشراف القوم.

الهجاء

لقد كان الجبن منقصة عند العرب، وكان الرضا بالذل وصمة، وكان عدم كسب مواقف البطولة معرة ومن تلك الأبواب يلج الشعراء إلى هجاء من يريدون هجاءه وذلك ما اتجه إليه كعب في هجاء ابن الزبعري في قوله:

فسل عنك في عليا معد وغيرها ** من الناس من أخزى مقاما

ومن هو لم تترك له الحرب ** ومن خده يوم الكريهة أضرع

الكريهة: الحرب، الأضرع: الذليل.

وقدمنا قوله في هجاء قريش:

جاءت سخينة كي تغالب ربها ** فليغلبن مغالب الغلاب

إبراز صفات المسلمين في المعارك وإعدادهم لها

اتسم المسلمون في معاركهم مع عدو الله تحت راية رسول الله بصفات عني الشعراء بإبرازها، وشغل الحديث عنها مشاعرهم وقوافيهم.

(أ) وكان الصبر في المواقف وعدم الفرار حين يستحر القتال من الصفات التي عرف بها المسلمون وصورها كعب في قوله:

صبرنا لهم والصبر منا سجية ** إذا طارت الأبرام نسمو ونرتق

على عادة تلكم جرينا بصبرنا ** وقدما لدى الغايات نجري

الأبرام: اللئام، نرتق: نصلح.

(ب) حب الاستشهاد في سبيل الله والحق، وفي ذلك يقول كعب:

إن تقتلونا فدين الحق فطرتنا ** والقتل في الحق عند الله تفضيل

وقوله:

فخرتم بقتلى أصابتهم ** فواضل من نعم المفضل

فاعتبر القتل في سبيل الله نعمة تفضل الله بها على الشهداء.

وبين مكانة شهيد الإسلام وقتيل الكفر في قوله:

شتان من هو في جهنم ثاويا = أبدا ومن هو في الجنان مخلد

(جـ) ملاقاة الشجعان وبذل الغالي من الأموال في الدفاع عن الأحساب، فقال:

جلاد الكماة وبذل التلاد ** عن جل أحسابنا ما بقينا

(د) إعداد العدة:

عرف العرب في جاهليتهم بالغارة وحب الفتك، وكثيرا ما تغنوا ببطولاتهم، فلما جاء الإســـلام هذب طباعهم ونظم شمائلهم، فتجلت ضـروب الشـجاعة ولكنها لم تكن لحب الفتك وإراقة الدم للتشـفي بل لخير الإنسـان والإنسـانية، ومن ثم أعدوا للمعارك الإسـلامية العدة من ســلاح وعتاد قبل خوضــها ولم يجبنوا عند لقاء الأعداء، أو يفروا عند الزحف.

ومن أروع ما قيل في التقدم في المعارك قول كعب بن مالك:

نصــل الســيوف إذا قصــرن ** قـدمـا ونلحقهـا إذا لم تلحق

فترى الجماجم ضــاحيا هاماتها ** بلـه الأكف كـأنهـا لم تخلق

ونعـد للأعـداء كـل مقلص ** ورد ومحجول القوائم أبلق

تردي بفرســـان كـأن كماتهم ** عند الهياج أســـود طل ملثق

صـدق يعاطون الكماة حتوفهم ** تحت العماية بالوشــيج المزهق

أمـر الإلــه بربطهــا لعـدوه ** في الحرب إن الله خير موفق

الجماجم: الرءوس، ضاحيا: بارزا للشمس، بله: اسم فعل بمعنى: اترك، المقلص: الفرس الخفيف، الورد من الخيل: بين الكميت والأشقر،

التحجيل: بياض في قوائم الفرس كلها ويكون في رجلين ويد وفي رجلين فقط وفي رجل فقط ولا يكون في اليدين خاصة، البلق: سواد وبياض وارتفاع التحجيل إلى الفخذين، تردي بفتح التاء: تسرع، الكماة: الشجعان، الطل: المطر الضعيف، ملثق: فيه زلق وطين والأسود عند ذاك تكون أشد هياجا، العطو: التناول، الحتف: الموت، العماية: سحابة الغبار وظلمته، الوشيج: الرماح، المزهق: المذهب للنفوس.

وحول الإعداد للمعارك يدور كثير من شعر كعب بن مالك فيقول في إحدى قصائده:

أجيبونا إلى ما نجتديكم ** من القول المبين والسداد

وإلا فاصبروا لجلاد يوم ** لكم منا إلى شطر المذاد

نصبحكم بكل أخي حروب ** وكل مطهم سلس القياد

وكل طمرة خفق حشاها ** تدف دفيف صفراء الجراد

وكل مقلص الآراب نهد ** تميم الخلق من أخرى وهادي

ينازعن الأعنة مصغيات ** إذا نادى إلى الفزع المنادي

الاجتداء: الطلب، الشطر: الناحية، المذاد: موضع بالمدينة، المطهم: الفرس التام الخلق، الطمرة: بتشديد الطاء المكسورة وتشديد

الراء المفتوحة: الفرس الجواد، دف الطائر: حرك جناحيه، المقلص: الشديد الآراب: قطع اللحم، النهد بتشديد النون المفتوحة: الغليظ، الهادي: العنق، الأعنة: اللجم.

يطلب الشاعر من الأعداء الصبر على جلاد يوم يجتمعون فيه ناحية المذاد حيث يصبحون هناك بكل مؤاخ للحروب مدرب على أهوالها وبكل جواد سلس وبكل فرس كذلك تتحرك كأنها الجراد وبكل شديد اللحم مكتنز ضخم العنق، وكل تلك الخيول تنازعنا الأعنة وهي مصغية حينما تسمع صوت المنادي وكأنما دربت على الانطلاق حينما تسمعه إلى حيث مصدره.

شعر الغزوات

بين جيوش المؤمنين الذين عاهدوا الله ورسـوله على البذل، وتحت ألوية التوحيد غزا كعب بن مالك وشهد غزوات الرسول الله – صلى الله عليه وسـلم – غير بدر وتبوك، غزا ومعه سـيفه الصـارم ولسـانه البتار وقلمه المصـور، غزا فأبلى وأحسـن البلاء فكما أرسـل مهنده وسـنانه أرسل لسانه يصور، ويتحدث عن الإسلام وما جاء به، وما يدعو إليه، وتوعد الجاحدين بالقوة الإلهية التي تجتاح المعاندين، وفي بعض شـعره في الغزوات تراه المؤرخ الذي يذكر أسماء القتلى في المعارك. وما كان يهدأ غبار المعارك حتى يسـترجع خواطره وما فيها من صـور ثم يترجم الصـور والمشـاهد شـعرا عاش على الزمن حيا ينقل للأجيال صـور المعارك الإسلامية وما كان فيها من بطولات، وكثيرا ما هزته نشوة الانتصار في بدر فرجع إليها يستثير بها الهمم، ويكشف ظفر القلة المؤمنة على الكثرة الباغية، ومما قال في بدر وتعرض فيه لذكر أسماء رءوس الكفر الذين صرعهم المسلمون قوله:

وقد عربت بيض خفاف كأنها ** مقاييس يزهيها لعينيك شاهر

فكب أبو جهل صريعا لوجهه ** وعتبة قد غادرنه وهو عاثر

وشيبة والتيمي غادرن في الوغى ** وما منها إلا بذي العرش كافر

فأمسوا وقود النار في مستقرها ** وكل كفور في جهنم صـــائر

تلظى عليهم وهي قد شـــب ** بزبر الحديد والحجارة ســـاجر

وكان رســـول الله قد قال اقبلوا ** فولوا وقالوا إنما أنت ســـاحر

البيض: الســـيوف، تلظى: تلهب، شـــب: أوقد، زبر الحديد: قطعه، الساجر: الموقد.

وفي الأبيات الثلاثة الأخيرة ســـاق معاني قرآنية لا تخفى على القارئ.

ومن قصيدة طويلة له في أحد قال:

فجئنـا إلى موج من البحر ** أحابيش منهم حاســـر ومقنع

ثلاثـة آلاف ونحن نصـــيـة ** ثلاث مئين إن كثرنا وأربع

نغـاورهم تجري المنيـة بيننـا ** نشارعهم حوض المنايا ونشرع

تهاوي قســـي النبع فينا وفيهم ** ومـا هو إلا اليثربي المقطع

ومنجوفة حرمية صـــاعدية ** يذر عليها السم ساعة تصنع

تصـــوب بأبدان الرجال وتارة ** تمر بأعراض البصـــار تقعقع

وخيل تراها بالفضـــاء كأنها ** جراد صـــبا في قرة يتريع

فلما تلاقينا ودارت بنا الرحي ** وليس لأمر حمـه الله مـدفع

ضـــربناهم حتى تركنا ســـراتهم ** كأنهم بالقاع خشـب مصـرع

النصـيحة: خيار القوم، المناورة: المداولة، نشـارعهم: نشـاربهم، ونشرع: نشرب، النبع: شجر تصنع منه القسي، اليثربي: الأوتار نسبة إلى يثرب، المنجوفة: السهام، الحرمية: نسبة إلى الحرم وأهله، الصاعدية: نسـبة إلى صـاعد صـانعها، البصـارة: حجارة لينة، تقعقع: تصـوت، الصـبا: ريح شـرقية، يتريع: يجيء ويذهب، حمه الله: قدره، سـراتهم: خيارهم، القاع: ما انخفض من الأرض.

في هذه الأبيات يصـور الشـاعر جيش قريش في كثرته الزاخرة، وكأن المسـلمين لقوا به بحرا مائجا يتوسـطه الأحابيش من عبيدهم بين حاسـر ومقنع، وكان عدد المشـركين ثلاثة آلاف (وهذا نص شـعري يتلاقى مع النص التاريخي) أما المسـلمون فكانوا ثلاث مئين وأربع من خيار القوم.

وصـور الشـاعر حركة المعركة بين الجيشـين وهما يتداولان التقدم والتقهقر والمنية تجري بينهم فتنهش أظفارها من تنالـه، والمسـلمون

يسوقون أعداء الله إلى أحواض المنايا تارة ويساقون تارة، والقسي تعمل عملها بين هؤلاء وأولئك، وللأوتار اليثربية والسهام الحرمية الصاعدية التي ذر عليها السم أثناء صنعها عملها في الأجساد وهي تقع تارة بأبدان الرجال فتمزقها وتارة تخيب فتنطلق بين الأحجار اللينة تصوت، والخيل تنطلق كأنها جراد ريح شرقية تجيء وتذهب في بردها، وحينما دارت الرحى والتقى الجيشان ونزل بالقوم أمر الله الذي لا عاصم منه ضرب المسلمون المشركين حتى تركوا أخبارهم وهم خشب مصرعة.

وله في أحد كثير من القصائد بل الروائع وحسبنا مما قال الأبيات التالية:

ويوم له وهج دائم شديد ** التهاول حامي الأرينا

طويل شديد أوار القتال ** تنفي قواحزه المقرفينا

تحال الكماة بأعراضه ** ثمالا على لذة منزفينا

تعاور أيمانهم بينهم ** كئوس المنايا بحد الظبينا

شهدنا فكنا أولي بأسه ** وتحت العماية والمعلمينا

بخرس الحسيس حسان رواء ** وبصرية قد أجمن الجفونا

فمـا ينفللن ومـا ينحنين ** ومـا ينتهين إذا مـا نهينـا

الوهج: الحرب، التهاول: الهول، الأرين: جمع إرة: مستوقد النار، الأوار: لهب الحرب، القواحز من القحز: وهو القلق، المقرفون: اللئام، الكماة جمع كمن وهو الشجاع المستتر في سلاحه، الأعراض: النواحي، الثمال: السكارى، المنزفون: الذين أنزفت الخمر عقولهم، التعاور: التداول، الظبينا: جمع ظبة: وهي حد السيف، العماية: السحابة أو ظلمة الغبار، المعلمون: من يعلمون أنفسهم في الحرب بعلامة تحديا للأعداء، الخرس: التي لا صوت لها ويقصد السيوف والرواء بالراء المشدودة المكسورة: الممتلئة بالدم، بصرية منسوبة إلى بصرى وهي مشهورة بصنع السيوف، أجمن: مللن، الجفون جمع جفن: وهو غمد السيف.

بهذه الأبيات من قصيدة طويلة يقدم الشاعر صورة ليوم من أيام الكفاح الإسلامي (يوم أحد) فالمعارك الدامية فيه اشتد هولها، وحمي موقدها وقد طال ذلك اليوم واشتد لهبه، ونفي القلق الذي ساد في ذلك اليوم اللئام عن القتال فلم يبق القلق بين الساحة لئيما، وإنك لتحسب الشجعان في نواحيه سكارى ذهبت عقولهم وتداولت أيمانهم مع الأعداء كئوس الموت بحد السيوف، فكل يقدم كأس المنية لمن ينازله.

ولقد شـهدنا ذلك اليوم فكنا أصـحاب بأسـه وقوته، وكنا تحت ظلماته، وكنا المعروفين بما نحمل من علامات تميزنا وكأنها تشـير إلينا، وقد شـهدناه بسـيوف حسـان تعمل ولا صـوت لها وقد امتلأت بالدم وبسـيوف كذلك من صـنع بصـرى قد ملت الأغماد وهي لا تقل ولا تنحني ولا تنتهي عن الضـرب إذا نهيت وهكذا قدم الشـاعر صـورة اليوم والشـجعان وهم يتعاورون كئوس الموت، وصـور قوة سـيوفهم وكرهها للأغماد ومتانتها من حيث إنها لا تفل ولا تنحني ولا تكف.

إجلاء بني النضير

خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى بني النضير يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر، فتآمروا على إسقاط صخرة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من فوق البيت الذي يجلس إلى جانب جداره فجاءه الخبر من السماء بما دبروه، فقام وقفل راجعا إلى المدينة، وأمر الناس بالتهيؤ للحرب وخرج إليهم فتحصنوا بالحصون، فأمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بقطع نخيلهم وإحراقها، فلما رأوا ما حاق بأموالهم سألوا رسول الله أن يجليهم ويكف عن دمائهم، ولهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، فخرجوا إلى خيبر، وسار بعضهم إلى الشام، وخلوا الأموال لرسول الله ونزل في بني النضير سورة الحشر.

وتناول كعب بن مالك في قصيدة طويلة إجلاء بني النضير ومقتل كعب بن الأشرف، وقد كانت أم كعب بن الأشرف من بني النضير، ولما سمع بنصر المسلمين في بدر هاله ذلك وخرج إلى مكة وأخذ يبكي قتلي بدر من المشركين في شعر ثائر يحرض به القرشيين على المسلمين، ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة وأخذ يشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم، فقال الرسول: من لي بابن الأشرف؟ فقال محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول الله، ثم اتفق معه سلكان بن سلامة (وهو أخو كعب بن الأشرف من الرضاعة) وعباد بن بشر، والحارث بن أوس، وأبو عبس

بن جبر، وخرجوا، واستدرجه سلكان من حصنه فمشى به ساعة، ثم حمل عليه وحمل أصحابه معه فقتلوه، وفزع اليهود حينما علموا بمقتله.

وهذه أبيات من تلك القصيدة التي يسوق فيها الشاعر كمؤرخ مصرع كعب بن الأشرف وإجلاء بني النضير، وليس في القصيدة شيء من الجمال الفني السامي لأن الشاعر كان فيها قصاصا يسرد فيها كيفية قتل كعب وإجلاء بني النضير في أسلوب لا يعدو أن يكون نظما للحوادث حيث يقول:

فغودر منهم كعب صريعا ** فذلت بعد مصرعه النضير

على الكفين ثم وقد علته ** بأيدينا مشهرة ذكور

بأمر محمد إذ دس ليلا ** إلى كعب أخا كعب يسير

فماكره فأنزله بمكر ** ومحمود أخو ثقة جسور

فتلك بنو النضير بدار سوء ** أبارهم بما اجترموا المبير

غداة أتاهم في الزحف رهوا ** رسول الله وهو بهم بصير

فذاقوا غب أمرهم وبالا ** لكل ثلاثة منهم بعير

وأجلوا عـامـدين لقينقـاع ** وغـودر مـنـهـم نخـل ودور

والمشـــهرة الذكور: الســـيوف المســـلولة من أغمادها، أبارهم: أهلكهم، المبير: المهلك، الرهو: الســـير الســـهل، غب: عاقبة، الوبال: العذاب.

وأشـار بقوله: لكل ثلاثة منهم بعير إلى الكيفية التي خرجوا عليها حيث ركب كل ثلاثة منهم بعيرا، وكان اتجاههم إلى قينقاع وهم قبيلة يهودية كذلك.

بدر الآخرة

كان أبو سفيان توعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد أحد في لقاء آخر في بدر فخرج الرسول وأقام في بدر ثماني ليال ينتظر أبا سفيان على رأس جيشه، وخرج أبو سفيان إلى عسفان أو الظهران، ثم أمر الناس بالرجوع، فرجعوا وسماهم أهل مكة جيش السويق حيث قالوا لهم: إنما خرجتم تشربون السويق وفي ذلك يقول كعب بن مالك:

وعدنا أبا سفيان بدرا فلم نجد ** لميعاده صدقا وما كان وافيا

فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا ** لأبت ذميما وافتقدت المواليا

آب: رجع، افتقدت: فقدت، الموالي: قصد بها القرابة.

غزوة الخندق أو الأحزاب

وقـدم نفر من اليهود على قريش ودعوهم إلى حرب محمـد واستئصال قوته، وكان ذلك في شوال سنة خمس، فخرجت قريش وعلى رأسها أبو سفيان، وخرجت غطفان وعلى رأسها عيينة بن حصن، فلما سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بخروجهم ضرب الخندق حول المدينة، وأقبلت قريش في عشـــرة آلاف ومعهم الأحابيش وأهل كنانة وتهامة فنزلوا بمجتمع الأســيال وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد فنزلوا إلى جانب أحد، وخرج رســول الله – صــلى الله عليه وســلم – وأصــحابه فجعلوا ظهورهم إلى ســلع (جبل بالمدينة) وكان عدتهم ثلاثة آلاف، واشــتد خوف المســلمين حين أتاهم أعداؤهم في تلك الجموع الكثيفة من فوقهم ومن أسـفل منهم، وطال الحصـار ولم يقع خلاله إلا بعض مبارزات بين أفراد من المشركين اقتحموا الخندق وبين بعض أبطال المسلمين.

وأوقع الله الفتنة بين قريش وغطفان من جانب وبين بني قريظة (اليهود) من جانب آخر، ثم بعث الله عليهم الريح في ليال شـاتية البرد فكفـأت قـدورهم وأطـارت خيـامهم فطـاروا مع الريح وطـارت معهـا شـوكتهم، وشـتت الله شملهم ثم خرج الرسـول صـلوات الله وسـلامه عليه إلى بني قريظة فحاصـرهم ثم حكم فيهم سـعد بن معاذ، فحكم بقتلهم،

وقال له رسول الله – صلى الله عليه وسلم: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة.

وقد صور كعب بن مالك غزوة الخندق في قصيدة مطلعها:

وســـائلة تســـائل ما لقينا ** ولو شـــهدت أرتنا صـــابرينا

ومنها:

بباب الخندقين كأن أســـدا ** شـــوابكهن يحمين العرينا

إلى قوله:

كما قد ردكم فلا شـــريدا ** بغيظكم خزايا خائبينا

خـزايا لم تـنـالـوا ثم خـيرا ** وكـدتم أن تكونوا دامرينا

بريح عاصـــف هبت عليكم ** فكنتم تحتها متكمهينا

* الشـــوابك: التي يتشـــبث بها فلا يفلت * الفل: المنهزمون * الشديد: الطريد * الدامر: الهالك * المتكمه: الأعمى الذي لا يبصر.

بهذا النص يكشف الشاعر عن حقيقة رواها التاريخ وهي رجوع الأحزاب دون حرب، وقد شـــردوا في الآفاق وكادوا يهلكون، ويلتقي البيت الأخير مع قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩﴾ [سـورة الأحزاب:9]

ويصـــور الشـــاعر في الشـــطر الأخير حالة الأحزاب وقد عميت أبصارهم حينما هبت عليهم الريح العاصفة.

* * *

وقال كعب في غزوة الخندق كذلك من قصيدة طويلة:

من ســره ضــرب يمعمع بعضــه ** بعضـــا كمعمعة الأباء المحرق

فليأت مأســدة تســن ســيوفها ** بين المذاذ وبين جزع الخندق

دربوا بضـرب المعلمين وأسـلموا ** مهجات أنفسهم لرب المشرق

في كل ســـابغة تخط فضـــولها ** كـالنهي هبـت ريحـه المترقرق

بيضـــاء محكمـة كـأن قتيرهـا ** حدق الجنادب ذات شـــك

* المعمعة: صــوت التهاب النار * الأباء: العصــب * المأســدة: موضــع الآســاد * المعلمون: الذين ميزوا أنفســهم في الحروب بعلامة * الســابغة: الدرع * تخط فضــولها: ينجر على الأرض ما فضــل منها * النهي: بتشــديد النون المكســورة الغدير * المترقرق: الذي تصــفقه الريح فيجيء ويذهب * القتير: مســـامير الدرع * الجنادب: ذكور الجراد * الشك: إحكام السرد.

قدم الشاعر في هذه الأبيات صورة لبعض ما وقع من ضروب المبارزة بين الشجعان الأقوياء، ورأى أن ذلك الضرب العنيف يسر الشجعان حيث يشد أنظارهم وأسماعهم صليل السيوف وحركتها، وفي قعقعة أصواتها ما يشبه قعقعة القصب حين تلتهمه ألسنة اللهب، فمن شاء رؤية ذلك فليأت تلك المأسدة التي تسن سيوف أصحابها بين مراتع الخيول والوادي الذي لا شجر فيه عند الخندق، فأولئك تدربوا على ضرب الذين علموا أنفسهم بعلامة يعرفون بها وكأنهم دربوا على ضرب من يتحداهم وقد أسلموا أرواحهم لربهم وإنهم ليلبسون الدروع السابغة التي انحطت فضولها حتى انجرت على الأرض وهي تروح وتجيء كأمواج الغدير التي حركتها الريح، وإنها محكمة النسج وكأن مساميرها حدق ذكر الجراد، وهي ذات إحكام وتوثيق.

وله في الخندق قصيدة مطلعها:

ألا أبلغ قريشا أن سلعا ** وما بين العريض إلى الصماد

ومنها:

فلم نر عصبة فيمن لقينا ** من الأقوام من قار وباد

أشد بسالة منها إذا ما ** أردناه وألين في الوداد

إذا ما نحن أشرجنا عليها ** جياد الجدل في الأرب الشداد

قذفنا في السـوابغ كل صـقر ** كـريم غـير مـعـتـلـث الـزناد

أشـم كـأنـه أسـد عبوس ** غـداة بـدا ببطن الجزع غـادي

يغشـى هـامـة البطل المذكى ** صبي السيف مسترخي النجاد

لـنـظـهـر ديـنـك الـلـهـم إنا ** بكفك فاهدنا سـبل الرشـاد

سـلع: جبل بالمدينة * العريض: واد بالمدينة * الصـماد: جبل * القـاري: من كـان من أهـل القرى والبـاد من كـان من أهـل البـاديـة * البسالة: الشجاعة * أشرجنا: ربطنا * الجدل: الدروع المحكمة * الأرب: العقدة الشـديدة * السـوابغ: الدروع * اعتلث الرجل زندا: أخذه من شـجر لا يدري أيوري أم لا؟ * الأشـم: العالي العزيز * المذكى: الذي بلغ الغاية في القوة * صبي السيف: وسطه، * النجاد: حمائل السيف.

إن الشـاعر ليفخر بقومه حيث لا يرى بسـالة أشـد من بسـالتهم بين القرى والبوادي إذا ما أرادوا الضـرب الذي تحدث عنه في أبيات سـابقة وهم إلى جانب سـطوتهم وقوتهم ألين في حبهم من غيرهم فهم البسـلاء إذا ما ضـربوا واللينون إذا ما أحبوا، وبسـالتهم تتجلى حين يربطون الدروع ويشـدون عقدها، وكأنهم يقذفون في الدروع كل صـقر كريم مسـتعد للحرب عالي الأنف، كأنه الأسـد في عبوسـه حين يغدو ببطن الجزع، وحين يضـرب بوسـط سـيفه هامة البطل الذي بلغ غاية

قوته، وقد بدا نجاده الطويل المسترخي إلى جانبه يشير إلى طوله، كل ذلك يكون لإظهار دين الله وإعلاء كلمته، ثم ختم قصيدته بالدعاء إلى الله أن يهديهم في حياتهم ومعاركهم سبل الرشاد.

* * *

وقد تناول كعب بن مالك تصوير يوم ذي قرد وخيبر والطائف، ونسوق بعض أبيات من قوله في غزوة الطائف:

قال منها:

قضينا من تهامة كل ريب ** وخيبر ثم أجممنا السيوفا

نخيرها ولو نطقت لقالت ** قواطعهن: دوسا أو ثقيفا

ومنها:

فلست لحاضن إن لم تروها ** بساحة داركم منا ألوفا

ويأتيكم لنا سرعان خيل ** يغادر خلفه جمعا كثيفا

إذا نزلوا بساحتكم سمعتم ** لها مما أناخ بها رجيفا

بأيديهم قواضب مرهفات ** يزدن المصطلين بها الحتوفا

ومنها:

وكم من معشر ألبوا علينا ** صميم الجذم منهم والحليفا

أتـونا لا يـرون لهـم كـفـاء ** فجدعنا المســـامع والأنوفا

بكـل مهنـد لين صـــقيـل ** نســـوقهم بها ســـوقا عنيفا

وتنســـى اللات والعزى وود ** ونســـلبها القلائد والشـــنوفا

* * *

الريبة: الشك * أجممنا: أرحنا ومنه الاستجمام * نخيرها: نعطيها الخيرة * الحاضـــن: المرأة التي تحضـــن ولدها * الســـرعان: المتقدمون * الكثيف: الملتف: الرجيف: الصوت المضطرب * القواضب: السيوف القواطع * المرهفات: الحادة القاطعة * المصـــطلون بها: الذين باشـــروها واصطلوا بحرها * الحتوف جمع حتف: الموت * ألبوا: جمعوا * الصميم: الخالص * الجذم: بكســـر الجيم: الأصـــل * الجدع: القطع * المهند: السيف * اللين مخفف لين بتشديد الياء * الصقيل: المصقول * الشنوف جمع شـــنف بفتح الشـــين وهو قرط يعلق في أعلى الأذن، وما يعلق في أسفلها هو القرط، واللات والعزى وود (آلهة كانت تعبد. . .). .

بين الشاعر في هذه الأبيات أنهم انتهوا من معارك تهامة وخيبر ثم أراحوا السيوف حينا، ثم خيروها بمن تبدأ بعد ذلك، ولو نطقت لهتفت: أريد دوســـا أو ثقيفا، وبعد أبيات بدأ تهديده لهم فقال لســـت لامرأة حضنتني وربتني أو لحاصن بالصاد وهي العفيفة أي: لست ابن عفيفة راشـــدة إن لم تفاجئكم الســـيوف وإن لم تروا بأفناء دوركم ألوفها تجز الأعناق والنواصـــي، واســـتطرد في وعيده بأنهم ســـتأتيهم طلائع الخيل

ووراءها الجموع الكثيفة من جيوش المسلمين فإذا نزلوا ستسمع الساحة اضطرابا شديدا، يشير بذلك إلى الكثرة التي تتهددهم ثم كشف عن قوة سيوفهم التي تزير كل من يتصدى للمسلمين ساحة الموت.

ثم راح الشـــاعر يخوفهم فعرض عليهم صـــورة القبائل التي جمعت جموعها وألقت في المعارك بأصـــولها وحلفائها وظنوا حين شـــنوا غاراتهم علينا بأننا لسـنا أكفاء لهم فلم يقتلوا بأيدينا فحسـب، بل قطعنا آذانهم وأنوفهم (لم يرو التاريخ أن المســـلمين مثلوا بجثث قتلاهم في معركة من المعارك الإســـلامية، أتراها مبالغة شـــعرية من شـــاعرنا؟ أم تراه التهديد والإرهـاب؟ أم تراهـا القـافيـة حكمـت بهـذا التخيـل؟ حيـث لم يثبـت في التاريخ الإسلامي ذلك التمثيل). وقد ساقوهم سوقا عنيفا بكل سيف لين مصقول وأنسوهم آلهتهم التي طالما عبدوها وهي اللات والعزى وود، وطالما قدموا لها القرابين والهدايا وعلقوا بها القلائد والشـــنوف، ولكن المسلمين سلبوا ذلك الذي قدمه الموسرون السذج لهذه الآلهة.

المراثي

لقد رثى كعب بن مالك وترجم في مراثيه عن الأحزان والآلام، وكان رثاؤه في حمزة وقتلى مؤتة من أجود ما قال في الرثاء وقد تناول رثاء شهداء أحد وبينهم حمزة في قوله:

فكلهم مات حر البلاء ** على ملة الله لم يحرج

كحمزة لما وفى صادقا ** بذي هبة صارم سلجج

فلاقاه عبد بني نوفل ** يبربر كالجمل الأدعج

فأوجره حربة كالشهاب ** تلهب في اللهب الموهج

* حر البلاء: خالص الاختيار * لم يحرج: لم يأثم، بذي هبة: يقصد السيف وهبة السيف وقوعه بالعظم * الصارم: القاطع * السلجج: المرهف * عبد بني نوفل: وحشي قاتل حمزة * يبربر: يصيح * الأدعج: الأسود، أوجره: طعنه * الشهاب: القطعة من النار، الموهج: الموقد.

وبهذه الأبيات بين أن أولئك الذين استشهدوا في أحد أخلصوا وماتوا على ملة الله بلا إثم وبينهم حمزة الذي وفى بسيفه الصارم المرهف في هذه المعركة، ولكن عبد بني نوفل صاح كالجمل الأسود فطعنه طعنة تلهبت فيه كاللهب الموقد فقضت عليه.

وفي قصيدة أخرى كشف عن مشاعره حيال فقد حمزة فقال:

ولقد هددت لفقد حمزة هدة ** ظلت بتات الجوف منها ترعد

ولو أنه فجعت حراء بمثله ** لرأيت رأسي صخرها يتبدد

قرم تمكن في ذؤابة هاشم ** حيث النبوة والندى والسؤدد

والعاقر الكوم الجلاد إذا غدت ** ريح يكاد الماء منها يجمد

والتارك القرن الكمي مجدلا ** يوم الكريهة والقنا يتقصد

وتراه يرفل في الحديد كأنه ** ذو لبدة شثن البراثن أربد

عم النبي محمد وصفيه ** ورد الحمام فطاب ذاك المورد

* بتات الجوف: القلب والأحشاء * ترعد: تضطرب، حراء: جبل * الراسي: الثابت * القرم: السيد الشريف * ذؤابة هاشم: أعاليها * الكوم: جمع كوماء وهي العظيمة السنام من الإبل * الجلاد: القوية * القرن: النظير * الكمي: الشجاع * مجدلا: مطروحا * الكريهة: الشدة والحرب * يتقصد: ينكسر * يرفل: يتبختر * ذو لبدة: الأسد * شثن: غليظ * البراثن: للسباع: كالأصابع للإنسان * الأربد: الأغبر يخالطه سواد * الحمام: الموت.

وقال أيضا:

صـــفيــة قومي ولا تعجزي ** وبكى النســـــاء على حمزة

ولا تســـأمي أن تطيلي البكا ** عـلـى أســـــد الله في الهـزة

فـقـد كـان عـزا لأيـتـامـنـا ** ولـيـث المـلاحـم في الـبـزة

يريـد بـذاك رضـــــا أحمـد ** ورضـــوان ذي العرش والعزة

* الهزة: الاهتزاز والاختلاط في الحرب، الملاحم: جمع ملحمـة وهي الحرب، البزة: السلاح.

* * *

وفي قتلى مؤتة أرســـل نفثات قلبه الجريح حيث قضـــى هنالك القواد الثلاثة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة الأنصاري الشاعر، وتلك أبيات من قصيدة في قتلى مؤتة، قال:

نام العيون ودمع عينك يهمل ** ســـحا كما وكف الطبـاب

في ليلـة وردت علي همومهـا ** طـورا أحـن وتارة أتمـلـمـل

واعتـادني حزن فبـت كـأنني ** ببنات نعش والســماك موكل

وكـأنمـا بين الجوانح والحشـــى ** مما تأوبني شـــهـاب مـدخـل

وجدا على النفر الذين تتابعوا ** يوما بمؤتة أســـتدوا لم ينقلوا

صـــلى الإلـه عليهم من فتيـة ** وسقى عظامهم الغمام المسبل

صـــبروا بمؤتة للإله نفوســـهم ** حذر الردى ومخافة أن ينكلوا

فمضـــوا أمام المســـلمين كأنهم ** فنق عليهن الحـديـد المرفـل

* همل، همل الدمع: سـال * السـح: الصـب * * وكف: قطر * الطباب جمع طبابة وهي سـير بين خرزتين في المزادة فإذا لم يكن محكما قطر منه الماء * المخضل: السائل * التململ: التبرم والقلق.

* بنات نعش الكبرى: سبعة كواكب * السماك: برج في السماء * المدخل: النافذ إلى الداخل * أسـتدوا: حاربوا تحت رايات شـتى * لم ينقلوا: لم تتغير حالهم * الغمام: المســـبل: الممطر * الردى: الموت * ينكلوا: يرجعوا هائبين من عدوهم * الفنق: فحول الإبل الواحد فنيق * المرفل الذي تنجر أطرافه على الأرض.

* * *

نظرة في شعر كعب

تستطيع بعد أن قدمنا الكثير من النماذج لشعر كعب والتي أردنا بها أن نضع ذلك الشاعر في المكان الملائم لتلك الشاعرية، تستطيع عندئذ أن تدرك «أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين قدم إليه كعب لأول مرة في الكعبة فقال: كعب الشاعر؟» فقضى له بالشاعرية لم يكن ليقضي بذلك لولا أنه بلغه من شعره قبل إسلامه ما رآه أهلا للحكم بأنه الشاعر، وحسبه شهادة الرسول ومع هذا فتلك النماذج بين يديك ودون التأثر بحكم تستطيع أن تقرأ في دقة وتمحيص لتخرج كما خرجنا بالحكم له بأنه مصور دقيق يتخذ من الكلمات المناسبة مادة للصورة، وتلك صورة لجيش المشركين وقوامه ثلاثة آلاف سوى الأحابيش يرى الشاعر في ذلك العدد العظيم، والعدد التي يموج فيها من الدروع والسيوف والحراب وكلها يلمع تحت أضواء الشمس ما يشبه البحر المائج فيقول:

فجئنا إلى موج من البحر ** أحابيش فيهم حاسر ومقنع

فيكشف بذلك عن صورة تصطخب فيها الكثرة والحركة واللون، وفي وسط الموج المتقلب صورة أشبهتها صورة الأحابيش وهم بين حاسر تجلى سواده الفاحم ومقنع ستر سواده بقناع أبيض، وقدم في نفس القصيدة صورة السهام وهي تقع تارة بأبدان الرجال وتارة لا تصيب الهدف فتنطلق في الحجارة اللينة ترعد أصواتها في قوله:

تصـــوب بأبدان الرجال وتارة ** تمر بأعراض البصـــار تقعقع

ويقدم صــورة للخيل تســبح في الفضــاء كأنها جراد ماجته ريح الصبا الباردة هنا وهناك فهو يذهب ويجيء، وهكذا تكون صورة الخيل حين يكر بها الفرسان حينا ثم يرجعون ليهتبلوا فرصة للكر، فهي كذلك تتريع وتجيء وتذهب وذلك في قوله:

وخيل تراها بالفضـــاء كأنها ** جراد صـــبا في قرة يتريع

ويقدم في نفس القصيدة صورة للصحاري والجبال وكأن سوادها يتراءى من البعد كغبار ساكن منقطع وذلك في قوله:

صـــحار وأعلام كأن قتامها ** من البعد فقع هامد متقطع

* * *

وإن: شاعرنا هذا صادق كل الصدق في التصوير، فهو ابن بيئته ترجم كل ما ألهمته له البيئة في صـــور كأنها لوحات مصـــور تفنن في إضفاء الألوان والظلال عليها فعاشت على الأجيال يرى فيها المسلمون أمجادهم ويرى فيها العرب صــور البادية في صــحاراها وأعلامها وعينها وآرامها ونعامها، تلك البادية التي أنجبته، وكأننا ونحن نردد شـــعر كعب نعيش معه في عصره، ونلحظ بأبصارنا روائع المشاهد التي ألهمته الصور. وكأننا نرى صــورة ســلع والعريض والصــماد، وحدائق النخيل التي تروى بالنضح والآبار الضيقة التي حفرت من عهد عاد، وهي ثابتة دائمة يعلو فيها نهر المرار، وكأننا نرى الغاب والبردي الغليظ الصــوت الذي اصــفر للحصاد، كأننا نرى ذلك كله حين نقرأ له:

ألا أبلغ قريشـــا أن ســـلعا ** وما بين العريض إلى الصـــماد

نواضـــح في الحروب مدربات ** وخوص ثقبت من عهد عاد

رواكـد يـزخـر المـرار فـيـهـا ** فليس بالجمـام ولا الثمـاد

كـأن الغـاب والبردي فيهـا ** أجش إذا تبقع للحصـــاد

* سلع والصماد: جبلان * العريض: واد * النواضح: النخيل التي تســقى بالنضــح * الخوص: الآبار * المرار: نهر، الجمام جمع جمة وهي البئر الكثيرة الماء * والثماد: الماء القليل: أجش: عالي الصـــوت، تبقع: اصفر.

* * *

وليس: ثمت من شـاعر عربي جاهلي أو مخضـرم لم يتحدث عن الخيل؛ لأنها العماد الثاني لذلك المجتمع الذي عاش في جاهليته وصـدر إسـلامه، بين غبار المعارك الذي لا يخمد إلا ليشـتعل، ومن ثم اعتمدوا على الخيل في تلك الحروب، واعتمادهم ذلك دعا شعراءهم إلى الحديث عنها في أشـعارهم كسـلاح هام من أسـلحة القتال أو كعدة من عدده؛ ولأننا قلنا إن شـاعرنا ابن بيئته المصـور المعبر عنها نرى أنه لابد قبل أن نختتم الحديث عنه أن نقدم صـورة للخيل في شـعره: قال في قصـيدة مطلعها:

أبقى لنـا حـدث الحروب بقيـة ** من خير نحلـة ربنـا الوهـاب

ونزائعا مثل السـراح نمى بهـا ** علف الشـعير وجزة المقضـاب

قودا تراح إلى الصياح إذا غدت ** فعـل الضـراء تراح للكلاب

وتحوط سـائمة الـديار وتارة ** تردي العدا وتئوب بالأسـلاب

* النزائع: الخيل العربية التي حملت من أرضـها إلى أرض أخرى * السـراح: الذئاب جمع سـرحان * جزة المقضـاب: ما يجز من النبات ويقطع * قود: طوال * تراح بفتح التاء: تنشـط * الضـراء: الكلاب الضارية في الصيد، والكلاب بتشديد اللام الصائد صاحب الكلاب * السـائمة: الماشـية المرسـلة للرعي * تردي: تهلك، تئوب: ترجع. كأننا بالشاعر يقدم الحديث عن الخيول التي غنمت أو التي اشتريت ثم نقلت لتعيش في أرباض المدينة، وشـبهها بالذئاب في سـرعة عدوها وخفة حركتها، وذكر الشـاعر أن نموها كان بسـبب علف الشـعير وما يجز لها من النبات بالمقضـاب، ثم صـور جسـدها فوصـفه بالطول في قوله: قود وهو جمع أقود وقوداء، ثم صـور نشـاطها وحركتها حين تسـمع الصـياح فتفعل فعل كلاب الصـيد حين تنشـط وتنطلق وقد سمعت صـوت الكلاب (صـاحبها) وهو يهيب بها نحو الفرائس وكأن الخيول دربت على الاندفاع حين تسمع الصياح.

وهذه الخيول ينتفع بها في السلم والحرب، فهي في السلم تحوط السوائم وترعاها من سطوة الذئاب، وأما في الحرب فهي مهلكة للأعداء وتئوب بالغنائم والأسلاب.

وإنا حين نلقي نظرة على هذه الأبيات من تلك القصيدة الطويلة نلمس قوة (لبيد) وأسلوب لبيد وروح لبيد وكأن انطباعات الجاهليين تنعكس على شعره فهو متأثر إلى حد كبير برءوس شعراء الجاهلية وإن كان مخضرما وفي شعره الكثير من المعاني التي جاء بها القرآن والإسلام.

وقد لا نجد في هذا اللون الكثير من الوهن الذي ربما نراه في شعر غيره من شعراء صدر الإسلام الذين اتهموا بضعف شعرهم الإسلامي؛ لأنه مرتجل أو لأنه يحمل حقائق إسلامية صادقة.

وقد قيل: إن أعذب الشعر أكذبه: والحقائق تجافي الكذب، وربما كان سبب ضعف شعرهم، ذلك السرد التاريخي وقد لا يكون من إسراف القول إذا قلنا: إن كعب بن مالك قمة شعراء الرسول – صلى الله عليه وسلم – وحسبه من بين الصحابة أن يكون واحدا من اثنين حملا في سبيل الدعوة السيف والقلم هما: كعب وابن رواحة، فكان كعب صاحب السيف الذي نافح عن الإسلام ورسوله ونصر كلمته وكان صاحب القلم الذي ذاد عن الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – هجمات شعراء قريش بل طعن فأدمى ووخز فأخزى " جزاه الله وأحسن بين المجاهدين مثواه ".

فهرس الموضوعات

مقدمة 3

حياته 4

دين المجتمع المدني 6

ظهور الإسلام وانتشاره في المدينة..... 7

أول لقاء الشاعر برسول الله..... 8

الغزوات التي شهدها كعب 10

ما نزل فيه من القرآن 11

روايته الحديث.....15

مواقفه من الفتنة الكبرى.....16

كعب بن مالك أحد شعراء الرسول 18

موضوعات شعره في الإسلام.....20

الفخر والرد.....21

شعر الوعيد والتهديد 28

الهجاء 30

إبراز صفات المسلمين في المعارك وإعدادهم لها.....31

شعر الغزوات 35

إجلاء بني النضير.....41

بدر الآخرة 44

غزوة الخندق أو الأحزاب.....45
المراثي.....53
نظرة في شعر كعب.....57